

عبد الله بن سبأ

هذا رجل تقرأ خبره في كل كتاب من كتب المعاند والفرق ، وفي أكثر كتب التاريخ والأخبار التي تحدثت عن الفتنة في أيام عثمان بن عفان ، وعن مقتل الإمام علي بن أبي طالب ، وعن الغلو والغلاة .

تقرأ خبره في الكتب القديمة كما تقرأ خبره في الكتب الحديثة ، التي تعرضت للموضوعات المذكورة ، حتى ليخيل اليك أنه بطل من الأبطال ، ورئيس من رؤساء الفتن في الإسلام . ومع ذلك — وهذا هو الغريب — فإنك إذا ما تعمقت في دراسة الروايات وقرأت كل ما ورد عنه ، خرجت وأنت لا تعرف عن نبيه وأهله شيئاً ، إنما كل ما تعرفه عنه أنه يهودي ابن يهودي ، وأن أمه كانت سوداء ولذلك عرف بابن السوداء .

قالوا إنه : عبد الله بن سبأ ، وإنه كان « يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء . » (١) فهو يعني الأصل ، يهودي الدين من جهة الأب وإيراني من جهة الأم . أسلم كما جاء في تاريخ الطبري زمان عثمان (٢) . وقالوا : إنه كان رأساً من رؤوس الفتنة والشغب والبدعة . تنقل في الأمصار داعياً فيها إلى الثورة . وكان من أبطال الفتنة التي قامت على عثمان ، كما كان من رؤوس الدعوة التي أسست مذهب الغلو في علي بن أبي طالب والقبالة في حبه مبالغة انتهت إلى تأليهه .

وذكر بعض الأخباريين أنه أدرك وفاة علي بن أبي طالب ، وأنه لقي في « المدائن » رجلاً أسماه « جرير بن قيس » ، وكان جرير قد قدم حديثاً إليها ، فسأله ابن السوداء : « ما الخبر ؟ »

(١) الطبري (٩٨/٥) « طبعة المطبعة المسيحية » .

(٢) الطبري (٩٨/٥) .

فقال جرير : « ضرب أمير المؤمنين ضربة يموت الرجل من أيسر منها ، ويميش من أشد منها » .
وكان جوابه : « لو جئتمونا بدماعه في ألف مرة ، لملنا أنه لا يموت حتى يذودكم
بمصاه . » (١) ومعنى ذلك أن ابن السوداء كان حياً حين ضرب علي بن أبي طالب في الكوفة ،
وأنه توفي بعد وفاة علي .

ومراجع هذه الرواية « الجاحظ » ، وقد ذكرها في « كتاب المصاه » ، نقلاً عن « حباب
ابن موسى عن مجاهد عن الشعبي عن جرير بن قيس » (٢) . وقد دعت به « ابن السوداء » ،
ولم تسمه بـ « ابن سبأ » أو « عبد الله بن سبأ » ، كما سمته بقية الروايات .

وقد جعلت الرواية للتقدمة والد « ابن السوداء » رجلاً اسمه « حرب » ، ففيها : « عن
جرير بن قيس ، قال : قدمت المدائن بعدما ضرب علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه —
فلقني ابن السوداء ، وهو ابن حرب . فقال : ما الخبر ؟ فقلت : ضرب أمير المؤمنين ضربة
يموت الرجل من أيسر منها ، ويميش من أشد منها . قال : لو جئتمونا بدماعه في مئة مرة ،
لملنا أنه لا يموت حتى يذودكم بمصاه . »

وهذه الرواية ، هي أقدم رواية وردت عن ابن السوداء ؛ لأن ناقلها « الجاحظ » ، وهو
من التوفيقين سنة « ٢٥٥ هـ » . وتعد روايات سواء متأخرة ، لأنهم كانوا من التوفيقين بمدد ،
فهم متأخرون عنه ، وتعد رواياتهم لذلك متأخرة عن رواية الجاحظ المذكورة من ناحية الترتيب
الزمني ، وإن كان من الجائز أن يكون بعضها أقدم عهداً من رواية الجاحظ ؛ لأن راويها أخذ
روايته من مرجع متقدم على المرجع الذي نقل الجاحظ منه .

وبلي الجاحظ في ترتيب سني الواقعة ابن قتيبة التوفيق سنة ٢٧٦ هـ . وقد ذكر في كتابه
« المعارف » ابن سبأ ، فقال : « السبئية من الرافضة ؛ ينسبون إلى عبد الله بن سبأ ، وكان أول

(١) البيان والتبيين (٤٦/٣) .

(٢) البيان والتبيين (٤٦/٣) « القاهرة ١٩٢٧ » ، « طبعة حسن المندوبى » .

عبد الله بن سبأ

من كفر من الرافضة ، وقال : علي رب العالمين ، فأحرق علي أصحابه بالنار ^(١) . ثم « الذوبخني : أبو محمد الحسن بن موسى » ، وهو من رجال القرن الثالث للهجرة ، ومن علماء الشيعة المشهورين وصاحب مؤلف في فرق الشيعة معروف ومطبوع متداول يقال له « فرق الشيعة » . ثم أبو جعفر محمد بن جرير الطاهري المفسر والمؤرخ المشهور ^(٢) . ثم أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ^(٣) .

ومجد في كتاب رجل من رجال الشيعة اسمه « أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكندي » صاحب كتاب « معرفة أخبار الرجال » ، أشياء عن « ابن سبأ » لم ترد في كتاب الجاحظ ولا في كتاب ابن « قتيبة » ، وقد ذكر سندها على هذا النحو : ابن قولويه عن سعد بن عبد الله ابن أبي خاتم القمي عن محمد بن عثمان البدي عن يونس بن عبد الرحمن عن عبد الله بن سنان عن أبيه وينتهي السند بجمهر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ للهجرة ^(٤) .

هؤلاء هم ، في الواقع ، السند والمعدة في أخبار « ابن سبأ » . أما غيرهم من أمثال عبد القاهر بن طاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » ، و « ابن حزم » المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، و « أبي الظفر عماد الدين شاهقور طاهر بن محمد الاسفراييني » المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، و « الشهرستاني » المتوفى سنة ٥٤٨ هـ صاحب « الملل والنحل » ، و « الألباني » المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ، و « القرظي » المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، و « ابن خلدون » المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، و « الجرجاني » المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، وغيرهم ، فقد بحثوا في « ابن سبأ » وفي السبئية ، ولكنهم لم يأتوا إجمالاً بشيء جديد ، يزيد على ما ذكره المتقدمون ممن ذكرت . وقد كان مراجعهم كتب أوائل المتقدمين عليهم في الغالب ،

(١) العارف (ص ٢٦٧) ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ ، (ص ٣٠٠) « طبعة أوربية » ،

(٢) استنعت بالطبعين من كتابه : تاريخ الرسل والملوك : طبعة « لايدن » ، والطبعة المصرية .

(٣) العقد الفريد (٢٣٦/٢) « طبعة محمد سعيد الهرمان » .

(٤) راجع كتابه : معرفة أخبار الرجال .

أو الموارد التي رجع إليها أولئك المتقدمون عليهم . ولهذا فإن مناقشتنا الموضوع متكون الموارد المتقدمة بالدرجة الأولى مع الإشارة إلى الموارد الأخرى بالمناسبة .

وقد عرف الشخص الذي نتحدث عنه بـ « عبد الله بن سبأ » ، في كثير من الكتب التي تحدثت عنه ، ودمي بـ « ابن سبأ » أحياناً و بـ « ابن السوداء » أحياناً أخرى . و بـ « عبد الله ابن السوداء » كذلك . أما الطبري ، فقد دعاه بالتسميتين : دعاه بـ « عبد الله بن سبأ » ودعاه بـ « ابن السوداء »^(١) . وقد جعل « أحمد بن عبد ربه الأندلسي » من الرجل رجلين . فسمى أحدهما عبد الله بن سبأ ، وسمى الآخر عبد الله بن السبأب^(٢) . فأتت إذن أمام شخص عرف بـ « عبد الله بن سبأ » ، و بـ « ابن سبأ » أحياناً ، و بـ « ابن السوداء » و بـ « عبد الله بن السوداء » أحياناً أخرى . كما دعي « عبد الله بن السبأب » في بعض المراجع . أما من دعاه « عبد الله بن سبأ » و « ابن سبأ » ، فقد جعل أباه رجلاً عرف بين الناس بـ « سبأ » . وأما من سماه « ابن السوداء » أو « عبد الله بن السوداء » ، فقد نسبته إلى أمه ، وكانت سوداء ، فقلب سبأ عليها ، وصارت كأنها اسم علم لها . إلا ما كان من « الجاحظ » ، فقد ذكره بـ « ابن السوداء » ، ثم استدرك ، فقال : « وهو ابن حرب »^(٣) . فجعل أباه رجلاً عرف بـ « حرب » .

أما موطن « ابن سبأ » و منشؤه الذي نشأ فيه ، فقد كاد ينصب إجماع الرواة على أنه « اليمن » ، إلا ما كان من رواية منسوبة إلى « الشعبي » ورد فيها أنه كان يهودي الأصل ، من أهل الحيرة^(٤) . وقد نعت بعض الروايات على اسم المكان الذي ترعرع فيه من اليمن ، فجعلته « صنما » ، وهي مدينة صار لها شأن كبير منذ أيام استيلاء الحبش والفرس على اليمن ، و بقيت

(١) الطبري (٩٨/٥) « طبعة المطبعة الحسينية » .

(٢) العقد الفريد (٢٥١/٢) ، ضمن الإسلام (٢٣٤/١) .

(٣) البيان والتبيين (٤٦/٣) « طبعة السندون » .

(٤) الفرق بين الفرق في بحث الشيعة والخلاة (ص ٢٣) .

عبد الله بن سبأ

على هذه الأهمية في الإسلام إلى اليوم .

وقد نسبة بعض أهل الأخبار إلى « حمير » ، فدعاه بـ « الحميري » ، فهو من « حمير » على روايتهم هذه^(١) . ولكن هذه النسبة لا تعني أنه كان من حمير لما ودماً بالضرورة ، فـ « حمير » عرف « كعب الأخبار » بـ « الحميري » ، ولم يكن « كعب » من صميم حمير ، بل كان من يهود « حمير » . ونسب « وهب بن منبه » إلى « حمير » كذلك ، ولم يكن « وهب » حميرياً صريحاً ، بدليل ما صرح به بعض أهل الأخبار من أنه كان « أيدوبياً » ، فهو من الأبناء ، أي من ذلك الجبل الذي تكون من اختلاط الفرس بأهل اليمن الأصليين بالزواج بعد دخول اليمن في منطقة نفوذ الساسانيين بعد طرد الحبش من اليمن وبقاء الحكم فيها في أيدي الفرس إلى ظهور الإسلام . فيجوز أن تكون حميرية ابن سبأ حميرية مكتسبة ، اكتسبها بالولاء ، ويجوز أن تكون قد وردت إليه من جهة شيوع قدمه من اليمن . وقد كانت لفظة حمير يومئذ ترادف اليمن ، ولا سيما أنه نسب إلى أب هو « سبأ » ، و « حمير » من « سبأ » . ورأيت أن لفظة « سبأ » نفسها ليست اسم أبي « عبد الله » ، بل هي اسم الشعب ، وأنها سارت اسم أبيه من باب التثنية .

ما ذكرت هو كل ما ورد عن ابن سبأ وعن أبيه وأمه وعن وطنه . وهو عادة مقتضية ليس فيها عن الرجل إلا القليل . أما كيف وصل إلى العراق ، أو بلاد الشام ، أو أي مكان آخر دخله ، فله عند ربك . وأما نواحي حياته الأخرى ، غير المبادئ التي زعم أنه جاهر بها بين المسلمين ، فلا تعلم من أمرها شيئاً . واذن ، فليس لنا هنا إلا التحدث عن الآراء المنسوبة إليه وعن العقائد التي يقال إنه زرعها بين الشيعة ، وعن الفتن التي أضرم نيرانها في أيام عثمان . وأبدأ قبل كل شيء بالحديث عن الفتنة التي أثارها على الخليفة عثمان . وهي فتنة تحدث عنها الطبري ، وهو أقدم من أشار إليها من المؤرخين ، ثم أعطف بعده بالكلام على آرائه الأخرى

(١) الرسالة : الجزء ٧٧٥ ، الاثنان ١٠ عايس ١٩٤٨ .

رأياً بعد رأي ، وهي آراء تخص نوعاً خاصاً من العقائد ، تتلخص في : الوصية ، وفي الغلو في حق علي وفي الرجعة .

وترجع روايات الطبري عن « عبد الله بن سبأ » إلى حنيفة هذه سورتها : « وما كتب به إلي السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن عطية ، عن يزيد الفقمسي »^(١) . أو « ... في ذلك قصة كتب إلي بها المسسري يذكر أن شعيباً حدثه عن سيف ، عن عطية ، عن يزيد الفقمسي ، قال ... »^(٢) . أو « فيما كتب به إلي السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن عطية ، عن يزيد الفقمسي ، قال ... »^(٣) . فترى من هذا السند أن الطبري قد أخذ كل ما ذكره عن عبد الله بن سبأ من مصدر واحد ، هو « السري » عن « شعيب » عن « سيف » عن « عطية » ، وتنتهي سلسلة سند « السري » بـ « يزيد الفقمسي » .

وقبل أن أعرض لرجال هذا السند ، أرى تسطير كل ما أورده الطبري عن « ابن سبأ » مبتدئاً بخبر وروده إلى البصرة قادماً من الحجاز^(٤) . ففي البصرة بدأت فتنته كما ذكر الطبري ، ومن هذه المدينة انتقل إلى المدن الأخرى ، معلناً ثقته على الخليفة عثمان ، ودعواته في علي بن أبي طالب وفي الرجعة ، واقناعه أبا ذر الغفاري بأخذ رأيه في المال وفي تصرف معاوية في أموال « بيت المال » .

وإليك ما كتبه الطبري عن يحيى ابن السوداء إلى البصرة ، قال : « مما كتبت به إلي السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن عطية ، عن يزيد الفقمسي ، قال : لا مضي من إمارة

(١) الطبري (٩٠/٥) « ذكر الخبر عن تسيير عثمان من سير من أهل البصرة إلى الشام » .

(٢) الطبري (٦٦/٥) . « أخبار أبي ذر رجعته الله تعالى » .

(٣) المصدر نفسه (ص ٩٨) « ذكر مسير من سار إلى ذي حنيفة من أهل مصر وشعب وسير من سار

إلى ذي المروة من أهل العراق » .

(٤) « فأسلم زمان عثمان ، ثم نقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ... » .

الطبري (٩٨/٥) .

عبد الله بن سبأ

أبى عامر ثلاث سنين بلغه أن فى عبد القيس رجلاً نازلاً على حكيم بن جبلة ، وكان حكيم بن جبلة رجلاً لمتاً إذا قفل الجيوش خنس عنهم ، فسعى فى أرض فارس ، فبغير على أهل الذمة ، ويتذكر لهم ، ويفسد فى الأرض ، ويصيب ما يشاء ثم يرجع ، فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب إلى عبد الله بن عامر أن « أحبسه » ومن كان مثله ، فلا يخرج من البصرة حتى تأمنوا منه رشداً . فحبسه ، فكان لا يستطيع أن يخرج منها . فلما قدم أبى السوداء ، نزل عليه ، واجتمع إليه نفر ، فطرح لهم أبى السوداء ، ولم يصرح ، فقبلوا منه وأستعظموه ، وأرسل إليه ابن عامر ، فسأله : ما أنت ؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك ، فقسال : ما يبغى ذلك ؟ أخرج عني . فخرج حتى أتى الكوفة ، فأخرج منها ، فأستقر بمصر ، وجعل يكانهم ويكاتبونه ، ويختلف الرجال بينهم » (١) .

ويفهم من هذا الخبر أن مجيء « ابن السوداء » إلى البصرة ونزوله على « حكيم بن جبلة » كان فى السنة الثالثة من إمارة « عبد الله بن عامر » على البصرة ، وبناء على ذلك تكون سنة مجيء « ابن السوداء » إلى البصرة سنة « ٣٢ هـ » تقريباً أو سنة « ٣٣ هـ » . فقد كان تعيين « عبد الله بن عامر » عاملاً على البصرة سنة تسع وعشرين ، عينه عليها عثمان . وكان قد عزل أبى موسى الأشعري واليه قبله . وكان عبد الله بن عامر ابن خال عثمان بن عفان ، وكان عمره خمساً وعشرين سنة يومئذ . وقد ذكر الطبرى الخبر المذكور فى جملة حوادث سنة ٣٣ للهجرة (٢) . وكانت المعركة الثانية بمدينة البصرة مدينة « الكوفة » ، ولم يذكر الطبرى مدة مكوث « ابن السوداء » فيها ، ولا المحل الذى نزل فيه . وإنما اقتصر على الإشارة إلى « خروجه منها » واستقراره بمصر . فكان خروج « ابن السوداء » من الكوفة خروجاً إجبارياً ، لا رأى له

(١) الطبرى (٩٠/٥) .

(٢) الطبرى (٥١/٥) « تم ذلك سنة تسع وعشرين » . ذكر ما كان فيها من الأحداث

فيه ولا اختيار ، وقد أوصله إلى مصر ، حيث استقر فيها ، وزاول عمله في إثارة الفتنة على عثمان ، وفي إعلان آرائه ، كما اتخذ مصر قاعدة سرية اتصل منها بالمشائخين على عثمان وبدعاة الفتنة في البصرة وفي الكوفة : يرسل رصده سرّاً إليهم ، ويتواصل معهم ، حتى أثار المصريين ، وجعلها يشتركان مع مصر في الحملة على الخليفة ، وفي مهاجمته في بيته بالدينة .

ولم يشر « السري » في هذه الرواية إلى بلوغ « ابن السوداء » دمشق الشام ، ونزوله فيها أيام ولاية معاوية عليها . ولكن « الطبري » يذكر في موضع آخر من تأريخه وهو باب حوادث سنة « ٣٠ هـ » أنه بلغ دمشق الشام ، وأنه نزل بها ، واتصل بأبي ذر الغفاري ، وكان بهما يومئذ ، وأنه أغراء بمعاوية . وقد نقل كلامه هذا عن « السري » ، بالسند نفسه المذكور في الخبر السابق ، وفي أخباره الأخرى التي أوردها عن هذا الرجل . وهناك نص ما ذكره عنه :

« وفي هذه السنة ، أعني سنة ٣٠ هـ ، كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية وإشخاص معاوية إتياء من الشام إلى المدينة . وقد ذكر في سبب إشخاصه إتياء منها إليها أمور كثيرة ، كرهت ذكر أكثرها . فأما الماذرون معاوية في ذلك ، فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب إلي بها السري ، يذكر أن شعيباً حدثه عن سيف عن عطية عن يزيد الفهمي ، قال : لما ورد ابن السوداء الشام ، لقي أبا ذر ، فقال : يا أبا ذر ، ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله إلا أن كل شيء لله ؟ كأنه يريد أن يحجب عنه دون المسلمين ، ويحجب اسم المسلمين . فأتاه أبو ذر ، فقال : ما يدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : رحمتك الله ، يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال مال الله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟ قال : فلا نفسه ، قال : فأني لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول مال المسلمين ، قال : وأني ابن السوداء أبا الدرداء ، فقال له : من أنت ؟ أظنك ، والله ، يهودياً ؟ فأني عبادة بن الصامت ، فمعلق به ، فأني به معاوية ، فقال : هذا ، والله ، الذي بعث عليك أبا ذر . وقام أبو ذر بالشام ، وجعل يقول : يامعشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله يكاوون من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال ، حتى ولع الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكوا

الأغنياء ما يلقون من الناس . فسكتب معاوية إلى عثمان أن أبا ذر قد أمهل بي . وقد كان من أمره كيت وكيت . فسكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطاهما وعينها ، فلم يبق إلا أن تنب ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أبا ذر إليّ ، وأبعث معه دليلاً ، وزواده ، وأرفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت . فبعث بأبي ذر ومعه دليل . فلما قدم المدينة ، ورأى الجهانس في أسل سلع ، قال : بشر أهل المدينة بفارة شمواء وحرب مذكور . ودخل على عثمان ، فقال : يا أبا ذر ، ما لأهل الشام يشكون ذريتك ؟ فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ، ولا ينبغي للأغنياء أن يفتنوا مالا . فقال : يا أبا ذر عليّ أن أضي ما عليّ ، وأخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدموم إلى الاجتهاد والاقتصاد . قال : فتأذن لي في الخروج ، فإن المدينة ليست لي بفار . فقال : أو تستبدل بها إلا شراً منها ؟ قال : أمرني رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن أخرج منها إذا بلغ البناء « سلماً » . قال : فأنفذ لما أمرك به . قال : فخرج حتى نزل الرّبذة ^(١) .

فكان خروج أبي ذر من دمشق ووصوله إلى المدينة في سنة ثلاثين للهجرة . أما إقامته في المدينة ، فكانت كما نرى من هذه الرواية قصيرة جداً ، لعلها لم تكن إلا أياماً ، ثم غادرها بعد ذلك إلى الرّبذة حيث أقام بها إلى سنة وفاته . وكانت في السنة الثامنة في ذي الحجة من إمارة عثمان ، أي في سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ^(٢) .

وبعد أن وقفنا على خبر عجيبي « ابن السوداء » إلى البصرة ، وخبر التفاسيه بأبي ذر في دمشق ، وتلقيته وأبيه في المال ، وتعليقه التفريق بين مدلول : المال مال الله ، وهو المدلول الذي كان يقول به معاوية ، ومدلول : المال مال المسلمين ، وهو الرأي الذي نادى به أبو ذر منجولاً من ابن السوداء ، نمود إلى موازنة الخبرين أحدهما بالآخر . فقد كان عجيبي « ابن السوداء » إلى البصرة في السنة الثالثة من حكم الصاملي ابن عامر . وقد رأينا أنه كان في السنة اثنتين

(١) الطبري (٦٦/٥) .

(٢) الطبري (٨٠/٥) ذكر الخبر عن وفاته في حوادث سنة اثنتين وثلاثين .

وثلاثين أو السنة الثالثة والثلاثين للهجرة ، كما ذكر ذلك مؤرخنا الطبري وأدرجه في حوادث هذه السنة (١) . وكانت سنة إخراجهم من البصرة الى الكوفة ، ومن الكوفة الى دمشق في هذه السنة كذلك .

أما سنة إخراج أبي ذر من الشام ، وترحيله الى المدينة بناء على طلب عثمان ، استجابة لشكوى معاوية من أبي ذر ، فكانت سنة ثلاثين للهجرة . وأما سنة وفاته ، فكانت السنة الثانية بعد الثلاثين من الهجرة ، وكانت بالربذة . ومعنى هذا أن ذهاب أبي ذر الى الشام ، وخروجه منها ، كان قبل مجيء ابن السوداء الى البصرة ، وأن سنة وفاته كانت قبل ذلك . ومعنى هذا أيضاً نفى التقاء ابن السوداء بأبي ذر في دمشق ، ونفي أخذه نظريته في المال من ابن السوداء .

ثم إن من الصعب تصديق خبر أخذ أبي ذر من رجل مثل ابن السوداء ، وهو رجل ذكورة من أصل يهودي ، يفامر فجأة بين المسلمين . وأبو ذر رجل شديد عفيف ، من قدماء الصحابة ، وله قدم راسخة في الإسلام ، ليست به حاجة الى الأخذ من يهودي دخل حديثاً في الإسلام ، حتى وإن قلنا يجوز التقاء أبي ذر به . لقد كان أبو ذر ممتداً برأيه ، فقيهاً ، عالماً بقواعد الإسلام ، لا يأخذ من أحد إلا إذا وثق به ، فكيف يتأثر برأي رجل طاري مطارد ، برد دمشق وهو منضوب عليه مطعون في دينه ، ثم يتأثر به بهذه السرعة ويتحسس له ويأخذ بمقالته ؟

ذكر الطبري أن أبا ذر كان « يختلف من الربذة الى المدينة مخافة الأعرابية » ، وكان يحب الوحدة والخلوة ، فدخل على عثمان وعنده كعب الأحمار ، فقال لثمان : لا ترضوا من الناس بكف الأذى ، حتى يبذلوا المروف . وقد ينبغي للزكاة ألا يقتصر عليها ، حتى يحسن الى الجيران والإخوان ، ويصل القرابات . فقال كعب : من أدى الفريضة ، فقد قضى ما عليه . فرفع أبو ذر حججه ، فضربه فشجه ، فاستوهبه عثمان ، فوهبه له . وقال : يا أبا ذر ، إتق الله ،

(١) الطبري (١٠/٤) .

عبد الله بن سبأ

واكف يدك ولسانك . وقد كان قال له : يا ابن اليهودية ، ما أنت وما همنا ؟ والله لتسمعن مني ، أو لا دخل عليك ^(١) .

ورجل يكون هذا جوابه مع رجل هو أقدم إسلاماً من أبي السوداء ، وقد اشتهر بين المسلمين بالعلم وبالوقوف على الكتب القديمة ، ويراد بها كتب يهود ، حتى نعت عندهم بـ « كتب الأخبار » ، وغطى نعتة هذا اسمه ، يتجاسر عليه ويضربه في حضرة خليفة ، ويقول له : « يا ابن اليهودية ، ما أنت وما همنا ؟ والله لتسمعن مني أو لا دخل عليك » أو « يا ابن اليهوديين أنزلنا ديننا » برواية أخرى ^(٢) . هل يعقل أخذه من رجل أسلم حديثاً ، ولم يكن معروفاً ، ولم يشتهر بعلمه ، ولا بأي شيء مميز آخر ؟ وهل يعقل أنجرافه ذلك الانجراف بدعايته ، ونحمسه ذلك التحمس له ؟ . وهل في الإسلام نقص وفراغ في هذا الباب ، حتى يأتي رجل فارغ منه لأندرى مقدار موضع قدمه في الإسلام ، يرشد أبا ذر إلى هذه الناحية التي كانت من أم النواحي المهمة التي تعرض لها الإسلام ؟

وقد جاء خبر سب أبي ذر لكتب الأخبار ، في كتاب « أنساب الأشراف » للبلاذري بشكل آخر . ورد على هذه الصورة : « لما أعطى عثمان مروان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاث مئة ألف درهم ، وأعطى زيد بن ثابت الأنصاري مئة ألف درهم ، جعل أبو ذر يقول : بشر الكافرين بمذاب أليم ، ويتلو قول الله عز وجل : (والذين يكتزون الذهب والفضة ...) الآية . فرجع ذلك مروان بن الحكم إلى عثمان ، فأرسل إلى أبي ذر « نائلاً » مولاه : أن أسته مما يملئني عنك . فقال : أشراني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله ؟ فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إليّ وخير لي من أن أسخط الله برضاه . فأغضب عثمان ذلك وأحفظه ، فتصابر ، وكف ، وقال عثمان يوماً : أيجوز للإمام أن يأخذ من المال ، فإذا أيسر قضى ؟ فقال كتب الأخبار : لا بأس بذلك . فقال أبو ذر :

(١) الطبري (٦٢/٥) .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٢٤٠/٢) .

يا ابن اليهوديين ، أتعلمنا ديننا ؟ فقال عثمان : ما أكثر أذاك لي وأولمك بأصحابي ؟ الحق بكاتبك ، وكان مكتبه بالشام ، إلا أنه كان يقدم حاجتاً ، ويسأل عثمان الإذن له في مجاورة قبر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيأذن له في ذلك . وإنما صار مكتبه بالشام ، لأنه قال لعثمان حين رأى البناء قد بلغ « سلماً » : إني سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : إذا بلغ البناء « سلماً » ، فالهروب . فأذن لي آت الشام فأعزرو هناك . فأذن له . وكان أبوذر يشكر علي (١) معاوية أشياء بفعلها . وبعث إليه معاوية بثلاث مئة دينار ، فقال : إن كانت من عطائي الذي حرمتونه طمي هذا ، قبلتها ؛ وإن كانت صلوة ، فلا حاجة لي فيها . وبعث إليه حبيب بن مسلمة القهري بمئتي دينار ، فقال : أما وجدت أهون عليك مني حين تبعث إلي بمال ؟ وردّها . وبني معاوية الخضراء بدمشق فقال : يا معاوية إن كانت هذه الدار من مال الله ، فهي الخيانة . وإن كانت من مالك ، فهذا الإشراف : فسكت معاوية .

وكان أبوذر يقول : والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها ، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه . والله إني لأرى حقاً بطلاً ، وباطلاً يخبأه ، وصادقاً يكذب واثرة بغير نقي ، ومالماً مستأثراً عليه . فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية : إن أباذر مفسد عليك الشام ، فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة . فكتب معاوية إلى عثمان فيه . فكتب عثمان إلى معاوية : أما بعد : فأحل « جندياً » إلي على أغلظ مركب وأوعره . فوجه معاوية من سار به الليل والنهار . فلما قدم أبوذر المدينة ، جعل يقول : تستعمل الصبيان ، وتحمي الحمى ، وتقرب أولاد الطلقاء ! فبعث إليه عثمان : الحق بأي أرض شئت . فقال : بكمة . فقال : لا . قال : فبيت المقدس . قال : لا . قال : فبأحد المصريين . قال : لا ، ولسكني مسيرك إلى الرينة . فسيره إليها ، فلم يزل بها حتى مات (٢) .

وكان أبوذر كما جاء في الأخبار شديداً زاهداً جداً ، ينف أي شخص معها كانت منزلته

(١) أنساب الأشراف (٥٢/٥) .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف (٥٢/٥ وما بعدها) .

عبد الله بن سبأ

إذا وجد أنه قد مال إلى الدنيا ، وأنه قد تصرف تصرفاً يخالف ما كان في أيام الرسول . وقد عرف ذلك عن نفسه ، فكان يقول : « ما ترك الحق لي صديقاً » . أو « ما زال بي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يترك لي الحق صديقاً » (١) .

فيفهم من هذا الخبر المتقدم ومن سائر الأخبار عن أبي ذر أن حملته هذه على المكثزين للذهب والفضة ، وعلى الجامعين للثراء ، وعلى المبتعدين عن الزهد أنقبيلين على الدنيا ، إنا بدأت قبل ذهابه إلى دمشق بأمد طويل ، وأن خروجه من المدينة وذهابه إلى الشام كان ناشئاً من ندمه من الوضع الجديد ، وتدمير الثرى منه والغالب أن ذهابه إليها لم يسكن عن طيب خاطر ، بل كان كرهاً وقسراً ، نجباً من وقوع فتنة في مدينة الرسول بسبب حملته المنيفة هذه ، وتخلصاً منه ، فأرسل إلى معاوية ليكون في سلطانه ونفوذه ونحت تأثيره ، وهو رجل اداري سياسي ، يعالج المعضلات والمشكلات باللين والحيلة والرفق ، إلا إذا وجد عنفاً وشدة . وقد عمل معاوية كل ما أمكنه لتغيير رأي أبي ذر وإقناعه بالتزام العمت والسكوت ، كما قام بامتحنانه لمعرفة درجة صدقه وإخلاسه في دعوته ، بإرسال الأموال الثرية إليه . فلما وجد منه الجدية في الدعوة والصدق في القول ، والإخلاص في العقيدة وأنه ماض في ذلك لا يثنى عنه ، شديداً لا يلين ولا يخشى عقاباً ، أدرك خطره ، وعرف ما ستمثل دعوته هذه في دمشق ، وكتب إلى الخليفة يلتمس منه إسداد الأمر بنقله منها إلى مكان آخر . وهكذا تخلص منه .

وقد ذكر البلاذري أخبار أبي ذر ، وذكر رأيه في المال ، ولم يشر إلى التفائه بأبن السوداء أو بأبن سبأ . وقد جاء البلاذري بروايات عن أبي ذر لم ترد في تاريخ الطبري ، اغترفها من منابع لم يغترف الطبري منها . ولو كان قد ألتقى به ، أو تلقى رأيه في المال منه ، لأشار إليه ، فقد أشار كما رأينا إلى رأي أبي ذر في المال وفي النبي والأغنياء قبل ذهابه إلى الشام . ولو كان رأي أبي ذر مأخوذاً من أحد ، لأشار البلاذري إليه ولا شك .

(١) البلاذري (٤/٥٠٠ وما بعدها) .

جواد هلي

ولم يكن أبو ذر الشخص الوحيد الذي نادى بهذا الرأي وجاهر به ، لقد شاركه فيه وقال به كثير من الصحابة غيره . وقد أخذ عمر بن الخطاب الصحابة بالشدّة في اقتطاع الأرض وامتلاك الأملاك ، وعنف المال لا بتنائيم البيوت بالجس والآجر واستخدامهم خشب الآبوس في البناء . ثم لم يكف بذلك ؛ بل حصر قريشاً والصحابة في المدينة ، ولم يسمح لهم بمغادرتهم إلا بإذن خشية أن يذهبوا إلى الأمصار ويقيموا فيها ويمتلكوا الأملاك الواسعة ، فيبطروا ، ويعتمدوا عن جوار بلادهم البسيط ، وعن شظف العيش .

ونظرة أبي ذر في المال لا تدخل في موضوعنا هذا ، والبحث فيها يشغلنا عن أصل بحثنا ، فليس لنا إلا أن نتبع ابن سبأ أو ابن السوداء . وقد أوصله بعض الأخباريين إلى دمشق ، فزعموا أنه قابل أبا ذر وقابل نقرأ غيره من الصحابة ، ثم غادر دمشق إلى مصر . أما كيف غادرها ، وكيف وصل إلى مصر ، وكف مكث في دمشق ، فتلك أسئلة لم يجب أهل الأخبار عنها ، ولم يكفوا أنفسهم عناء البحث فيها ، فلماذا عنها لذلك جهل ، وإحاطتنا بأخباره في مدينة معاوية سقر .

أما في مصر ، فقد أصاب ابن السوداء فيها نجاحاً كما يظهر من خبر « يزيد الفقمسي » ، فتمكن من إقرار آرائه ، ومن إثارة القوم على الخليفة ، ومن مكاتبة أهل البصرة والكوفة في الثورة على عثمان وعلى عماله حتى أشعلها ناراً ، وحتى نجح في تأليب الناس في تلك الأماكن ، وهي مواضع حساسة جداً ، فأقبلت على المدينة ، وشاغت فيها ، وحاصرت الخليفة ، ولم ترجع إلا بعد قتلها له ، وإثارتها فتنة كانت آثارها في المسلمين عظيمة ، فسمعتهم وشتت شملهم ، وأهلست عدداً كبيراً منهم في الحروب الأهلية التي وقعت فيما بعد .

وأما إقامة ابن السوداء بمصر ، ومدّة مكوثه فيها والمحل الذي نزل به ، والأشخاص الذين حلّ عليهم ، فهذه أمثاله أمور لم يتحدّث « الفقمسي » عنها ولم يشر إليها . لقد اكتفى بإيصاله إلى مصر ، وبنسبة الفتنة له ، ثم تركه هناك ، دون أن ينطرق إلى الجزئيات والفروع والتفاصيل . ومن هنا كان كل ما نعرفه عنه هناك أنه وجد أرضاً خصبة زرع فيها الفتنة ،

عبد الله بن سبأ

ولسكننا لا ندري أين زرعتها ؟ ومن ساعده على زرعها هناك ؟

ويذكر الفقيهي أن عبد الله بن سبأ قال لأهل مصر : لا لمحب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ل محمد أحق بالرجوع من عيسى . فقبل ذلك نفسه ، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها . ثم قال لهم بمد ذلك : إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي . وكان علي وصي محمد . ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء . ثم قال بمد ذلك : من أظلم ممن لم يميز وصية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ووثب على وصي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وتناول أمر الأمة ؟ ثم قال لهم بمد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق . وهذا - يعني علياً - وصي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأنهضوا في هذا الأمر ، فحرّكوه ، وابدؤوا بالظن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، نستميلوا الناس ، وادعواهم إلى هذا الأمر .

فبث دعاه ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار ، وكاتبوه ودهوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضمنونها في عيوب ولائهم ، ويكاتبهم إخوانهم بتشل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤوه أولئك في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إزاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسترون غير ما يريدون ، فيقول أهل كل مصر إنا لفي طافية مما أتتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة ، فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار . فقالوا : إنا لفي طافية مما فيه الناس ... فأتوا عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا ، والله ، ما جاءني إلا المسلمة . قالوا : فإننا قد أتانا . وأخبروه بالذي أسقطوا إليهم . قال : فأنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا علي . قالوا : نشير عليك أن تبعث رجلاً ممن تثق بهم إلى الأمصار ، حتى يرجعوا إليك



بأخبارهم . فدعا محمد بن مسلمة ، فأرسله الى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد الى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر الى مصر ، وأرسل عبد الله بن عمر الى الشام ، وفرق رجالاً مسواهم ، فرجموا جميعاً قبل عمار ، فقالوا : أيها الناس ، ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، وقالوا جميعاً : الأمر أمر المسلمين ، إلا أن أمراءهم يتسخطون بينهم ، ويقومون عليهم . واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا أنه قد أُغتيل ، فلم يفجأهم إلا كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي مروح ، يخبرهم أن عماراً قد أصابته قوم بمصر ، وقد انقطعوا اليه ، منهم : عبد الله ابن السوداء ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكذاتة بن بشر (١) .

وقد أبد البلاذري ما جاء في تاريخ الطبري من إرسال عثمان عمار بن ياسر الى مصر « لباتيه بسحة خبر ابن أبي حذيفة ، وحق ما بلغه عنه من باطله ، وأمره أن يقوم بعذره ، ويضمن عنه العتي بن قدم عليه . » ولكنه بدلاً من أن يهدى الاحوال ، ويسكت ابن أبي حذيفة ، « حرص الناس على عثمان ، ودعاهم الى خلقه ، وأشملها عليه ، وقوى رأي ابن أبي حذيفة وابن بكر ، وشجعهما على السير الى المدينة (٢) » . ثم رجع مع من جاء من المصريين الناقين الى المدينة ، واتصل بهم هناك ، وكان من المرشحين على الخليفة .

ولكنه لم يشر الى عبد الله بن سبأ أو ابن السوداء ، ولم يذكره كما ذكره الطبري . وقد ذكر الطبري أن ابن السوداء كان في جملة المصريين الناقين على عثمان ، الذين جاؤوا الى المدينة فأثاروا الفتنة فيها ، الفتنة التي انتهت بقتل الخليفة ، وسنده في ذلك : « السري » عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان (٣) .

أما إرسال عثمان عمار بن ياسر الى مصر ، فمسألة فيها نظر ، وإن نص عليها بعض الأخباريين ، فقد كان عمار شخصاً أميناً ، منقاداً له . وقد جادله مراراً ، واصطدم به مراراً اصطداماً عنيفاً .

(١) الطبري (٩٨/٥ وما بعدها) .

(٢) البلاذري (٥١/٥) .

(٣) الطبري (١٠٣/٥ وما بعدها) .



عبد الله بن سبأ

وكان متحاملاً عليه ، فليس من المعقول تكليفه القيام بهذه المهمة الخطيرة ، مهمة إشاعة الأمن والطمانينة بين أهل مصر ، وهو نفسه من الناقمين عليه ، خاصة كانت إشارة من نصيح عثمان برسال الرجال الى الأوصار ليرجعوا اليه بالأخبار الصحيحة عن الوضع ، بأن يكون أولئك الموفدين ممن يثق بهم الخليفة ويمتد عليهم^(١) . ولم يكن عمار باجماع الأخبار ممن تنطبق عليه جملة « ممن تثق بهم » .

ولذلك لا يعقل اختيار عثمان لعمار من دون الناس لهذه المهمة ، وإن فرضنا أنه إنما فعل ذلك لعلم عثمان بأثر عمار في أهل مصر وبمكانته عندهم ، وأنه أراد بذلك أيضاً معالجة واستدراجه اليه . فان عماراً لم يكن من أولئك الذين يستدرجون في سهولة ويصالحون في يسر . وقد خرج غاضباً وعاد غاضباً على عثمان .

وقد ذكر البلاذري أن عماراً بحسب رواية بعض الأخباريين كان في جملة من خرج مع علي بن أبي طالب ، لهدنة روع المصريين واسكاتهم بعد أن طلب عثمان من علي أن يفعل ذلك^(٢) ، وهذا يدل على أنه كان في المدينة حين قدوم الوفد . ويفهم من بعض روايات الطبري أن عماراً كان في المدينة حين وصل المصريون اليها ، وأنه اتصل بهم ، وجاء اليهم من المدينة . أولاد مقتل الخليفة حالة من الفوضى وعدم الاستقرار ، خنس معظم أهل المدينة في بيوتهم ، دفاعاً عن أنفسهم وعن أمواتهم ، وانتهم الأعراب والمسدوق هذه الفرصة فالتفوا حول الثائرين ، وهرب الموالي من ساداتهم ولم يعودوا يطيبونهم . وكان موقف الخليفة الجديد سمياً بين الآراء المتضاربة والفتن المتعددة التي ظهرت منذ أيام عمر : كان عليه ارجاع الأمن وإسكات الشعب ، واجابة مطالب الأغلبية ، وإصلاح بيت المال ، وكان عليه التهيؤ لقاومة الجماعة الثائرة له ، وهي جماعة قوية ، تعتمد على الدهاء والسكر السياسي ، وعلى المال تنفقه من غير حساب في

(١) ... قالوا نسير عليك أن تيمت رجالاً ممن تثق بهم الى الأوصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم... » ،

الطبري (٩٩/٥) .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف (٦١/٥) .

اكتساب ذوي الرأي والنفوذ ، وابعادهم عن الخليفة الجديد .
ولم تكن حركة ثوب الأعراب والموالي على ساداتهم حركة خاصة في المدينة ، بل كانت
وبدأت في العراق ثم انتشرت الى مصر وبلاد الشام وسائر الأماكن ، ومنها انتقلت الى
« المدينة » عاصمة الخلافة . لقد كانت أسبابها ودوافعها قديمة ، ترجع الى ما قبل الإسلام ، وقد
ثارت الآن لجهي ، وقود جديد اليها ، فظهرت في شكل هذه الثورة المؤسفة والثورات المتوالية
التي شغلت علياً وبني أمية ، حتى انتهت بسقوط دولتهم ، وذهاب ملكهم ، ولو انتبه المسؤولون
الى عواملها الأصلية ، لسهلوا ، وارتاحوا ، وعاشوا في أمن وراحة وسلام .

لقد عرفت جرثومة دعة الحركة المناوئة لعثمان بـ « السبئية » في تاريخ الطبري . ونحن
لا يعنيها في هذا المكان إلا هؤلاء . ويظهر من روايات هذا المؤرخ ، وكأما من « سيف » ، أن
هذه الجماعة كانت بمصر ، وأنها وردت المدينة منها ، وأنها صادت جماعة ذات أثر خطير في تلك
الأيام ، وإن لم تكن تضم أناساً من المشاهير المعروفين ، فلم يسكن فيها من أبناء الأسر ، أسر
قريش المعروفة ، ولم يكن من بينها من كان من الصحابة ، بل كان جماعهم من الشبان أو الكهول
الناقين على الوضع العام ، وعلى الأسراف في بيت مال المسلمين يذهب الى « أولاد الطلقاء » والى
نسل من حارب النبي في جانب قريش . هذه كانت بعض دعواتهم فيما أذاعوه على الناس (١) .

وقد تكرر ورود لفظة « السبئية » في تاريخ الطبري عن أيام الفتن التي وقعت في أيام
عثمان وفي أثناء تولي علي الخلافة . وقد كانوا قوة لها أهمية في معركة الجمل ، ترمي بالنشاب ،
وتحرك المعركة كما يذكر الرواة بحسب رأيها وخطتها . وكان لها رأي مسدود في خلافة علي ،
لاستلاكها ناصية الدعاية والتأثير في السواد وتوجيه الرأي العام . ومع ذلك لم يتسسر أصحاب
الأخبار الى أصل التسمية ، هل جاءت من نسبتها الى عبد الله بن سبأ ، أو من انتسابها الى
« سبأ » أي الى يمن ، فهم جماعة يمانون وذلك على نحو ورود لفظة « مضرية » من نسبتها الى

(١) الطبري (١٠٢/٥) .

مضر ، وقد كان لها أيضاً أثر خطير في معركة الجبل .
والظاهر أنها كانت كتلة من أكثر الكتل السياسية التي ظهرت في أيام عثمان نظاماً .
كانت بارعة في توجيه دعايتها ونشر أغراضها ، نشيطة في تكوين الفروع السرية لها ، متمكنة
من معرفة أسباب التذمر ، عارفة بالمواضع الحساسة من الحياة وبما يتشكى منه الناس . وقد
تسترت في دعوتها ، وجاهرت بها بحسب الظروف والأحوال ، وكانت تتراسل مع من عرفت
منه التذمر والتشكي من سوء الوضع ، وتتفحص أخبار الولاة وأخبار المخالفات التي يقومون بها ،
ولا سيما أخبار التجاوز والتجاوز على بيت المال ، فتدبها بين الناس ، للإشهار والإعلان ،
تذيع أخبار الأمصار في مصر ، وأخبار مصر في الأمصار ، وهكذا كان الناقدون على علم بما
يجري في سائر بلاد الإسلام .

وكانت السكوفة والبصرة من أكثر المواضع حساسية في المسالم الإسلامي ، وهما في ذلك
أشد خطراً من مصر . فرأى « أهل مصر » مكاتبة زعماء المصريين والاتصال بهم ، لتوحيد
الخطى ، وتكوين قيادة ثورية واحدة ، تقوم بعمل واحد ، وتنتهج في عملها نهجاً واحداً . وقد
وردت جملة « أهل مصر » في مواضع من تاريخ الطبري كناية عن الثائرين . وهي تؤدي معنى
« السبئية » أي الثوار المصريين الذين كانوا يتقنون على عثمان . وكان من زعمائهم : عبد الرحمن
ابن عديس البلوي ، وكثانة بن بشر اللبثي ، وسودان بن حمران السكوني ، وقتيبة السكوني ،
والناقصي بن حرب المكي ، وابن السوداء .

ويذكر « سيف » أن الثاقبين على الخليفة في الأماكن الثلاثة المذكورة انفتحوا أولاً وبعد
أن تمت خططهم على « أن يشعروا خلاف أمرائهم وانعدوا يوماً » ، ثم أجلوا الثورة إلى وقت
مناسب آخر^(١) . ورأت « السبئية » وضع خطة أخرى محكمة ، ف « كاتبوا أشياءهم من أهل
الأمصار أن يتوافروا بالمدينة لينظروا فيما يريدون ، وأظهروا أنهم يأثرون بالمعروف ، ويسألون

(١) الطبري (١٠٩/٥ وما بعدها) .

عُمان من أشياء لتظير في الناس واتحقق عليه . فتوافوا بالدينة . وأرسل عثمان رجلين مخزومياً وزُهرياً ، فقال : أنظرا ماذا يريدون ، وأعلما عليهم ، وكانا ممن قد ناله من عثمان أدب . فأصعبا للحق ، ولم يضطغتا ، فلما رأوها ، بآثرهما ، وأخبروهما بما يريدون ، فقالا : من معكم على هذا من أهل المدينة ؟ قالوا : ثلاثة نفر . فقالا : هل إلا قالوا لا قالا : فكيف تريدون أن تصنعوا ؟ قالوا : نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أننا قررناه بها ، فلم يخرج منها ، ولم يتب ، ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه ، فإن أبي قتلناه وكانت إياها ^(١) .

وتكاتب أولئك الناقدون ، وقالوا : موعدكم ضواحي المدينة في شوال ، على أن يأتيوا بهيئة الحجاج ، وذلك من سنة خمس وثلاثين .

وفي الأجل المضروب الذي تكاتبوا عليه ، خرج الناقدون من أهل البصرة والكوفة في زبي الحجاج قاصدين الحجاز . وقد قسم أهل كل مصر من هذه الأقطار الثلاثة جماعتهم إلى أربعة أقسام ، عرفت كل جماعة من هذه الجماعات بـ « الرقاق » جمع « رقيق » ، وعلى رأس « الرقاق » رؤساء يتولون شؤون الرقاق . فكان على رأس « رفاق » البصرة الأربعة أربعة رؤساء وعلى رأس « رفاق » الكوفة الأربعة أربعة رؤساء وعلى رأس « رفاق » مصر الأربعة أربعة رؤساء كذلك ، ومجموعهم اثنا عشر رئيساً أو « رقيقاً » يدبر شؤون الرقاق .

وجعلوا على كل قوم من الأقسام الثلاثة ، أي على كل أربعة « رفاق » ، رئيساً أعلى يشرف على القوم . فكان النافقي بن حرب العكسي على « قوم » مصر ، وكان عمرو بن الأصم على قوم الكوفة ، وكان حرقوص بن زهير السلمي على قوم البصرة . وقد نعت رئيس القوم بـ « الأمير » . وكان « ابن السوداء » في جملة رجال رفاق مصر ، ولكن « السري » صاحب هذا الخبر ، لم يذكره في جملة الرؤساء أو الأمراء ^(٢) .

(١) الطبري (١٠١/٥ وما بعدها) .

(٢) الطبري (١٠٣/٥ وما بعدها) .

كان انجاء هذه الحركة التي ظهرت ضد عثمان اتجاهها اجتماعياً في الدرجة الأولى إذن . وأما ما لا يسها من تحزب ونشيع لعلي ، فلم يكن أثر له في البسداء ، كان هوى الناقلين على الخليفة من أهل الكوفة في الزبير ، وكانت هوى أهل البصرة في طلحة ، وكل من هؤلاء يدعو إلى صاحبه ، ويسعى إليه . ولما ورد وفدهما ضواحي المدينة على اليعاد المتفق عليه ، راجع كل « رفاق » من الرفاقيين صاحبه ، إلا « رفاق » مصر ، فقد راجعوا علي بن أبي طالب ، وكان هوام فيه . ويذكر « الطبري » نقلاً عن « السري » أن هذه الحركة بدأت في السنة الأولى من إمارة عثمان ، بدأت على أثر اتخاذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار ، وانقطاع أناس إليهم ، وامتلاكهم آلاف الرقيق ، ثبتوا على ذلك سنين . ثم إن ابن السوداء أسلم ، وتكلم ، فوجدت دعوتهم رواجاً بين الناس . وكان عمر « قد حاجر على أعلام قريش من المهاجرين الخارجين في البلدان ، إلا باذن وأجل ، فشكوه ، فبلننه ، فقام فقال : ألا إني قد سنت الإسلام سنّ البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سدسياً ثم بازلاً ، ألا فهل يُنظر بالبازل إلا التقصان ؟ ألا فإن الإسلام قد بزل ، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله مموّناً دون عبادته ، ألا فآما وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم دون شمس الحرّة ، آخذ بحلّاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار » (١) .

فلما مات عمر ، تنفس هؤلاء الرجال من قريش ، وتنفس أموالهم ، وكثرت أملاكهم ~~كثرة~~ لا يفكر فيها إلا من كان محروماً ممدماً . فامتلكوا الأرضين الواسعة في العراق ، واقطعوا خيرة الاقطاعات الخصبة ، واستفوا الأثوف من أصحاب الأرض الأصليين من الموالي ، ومن هنا نبتت الشكاوى وارتفعت ، وظهرت معها نظرية « السوداء بستان قريش » . يقول السري : فلما ولي عثمان ، لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر ، فانساحوا في البلاد . فلما رأوها ، رأوا الدنيا ، ورآهم الناس ، انقطع من لم يكن له طول ولا ضربة في الإسلام ، فكان ممنوعاً في الناس وصاروا أوزاعاً إليهم ، وأملوهم ، وتقدموا في ذلك ، فقالوا : بملكون ،

(١) الطبري (٤/١٣٤) .

فنتكون قد عرفناهم ، وتقدمنا في التقرب والانتطاع اليهم . فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام ، وأول فتنة كانت في العاصمة ، ليس إلا ذلك ^(١) . وذكر أيضاً « لم يمت عمر ، رضي الله عنه ، حتى ملته قريش . وقد كان حصرهم بالمدينة ، فأمتنع عليهم . وقال : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، فإن كان الرجل يستأذنه في الغزو ، وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ، ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة ، فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما يبغلك ؛ وخير لك من الغزو اليوم : ألا ترى الدنيا ولا نراك . فلما ولي عثمان ، خلى عنهم ، فأضطربوا في البلاد ، وانقطع اليهم الناس ، فكان أحب اليهم من عمر » ^(٢) .

وقد كان عمر شديداً في هذا الباب ، يرى التعسف في الحياة ، ويطبق ذلك على نفسه وعلى أهله أولاً . كان لا يلبس إلا الملابس الخشنة ، ولا يأكل إلا الأكل البسيط الذي يكون في متناول الطبقات الفقيرة . لم يرض بتخل الدقيق ، ولم يستعمل اللحم إلا في القليل ، أسوة بالفقراء والموزين . وهذا مما فاظ الطبقات الغنية من قريش التي كسبت وحصلت على مالها في الإسلام . وقد أكل بعض الناس مع عمر ، وأكلوا مع عثمان ، وهالك ما قاله بعض هؤلاء :

قال عمرو بن أمية الضمري : كنت أتشي مع عثمان خزيراً من طبع من أجود ما رأيت قط : فيها بطون النعم وأدها اللبن والسمن . فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطأب ، أكلت معه هذه الخزيرة قط ؟ قلت : نعم ، فكادت اللقمة تفرث في يدي حين أهوي بيها إلى فمي وليس فيها لحم ، وكان أدها السمن ، ولا لبن فيها . فقال عثمان : صدقت ، إن عمر ، رضي الله عنه ، أتعب والله من تبع أثره ، وإنه كان يطلب بدينه عن هذه الأمور ظانفاً وقال عبد الله بن عامر : « كنت أظفر مع عثمان في شهر رمضان ، فكان يأتينا بطعام هو أبين من طعام عمر . قد رأيت على مائدة

(١) الطبري (٤/١٣٤) .

(٢) الطبري (٥/١٣٤) .

عبد الله بن سبأ

عثمان الذرّمك الجيد ، وصغار الضأن كل ليلة ، وما رأيت عمر قطعاً أكل من الدقيق منخولاً ،
ولأكل من النعم إلا مسانها . فقلت لعثمان في ذلك ، فقال : يرحم الله عمر ، ومن يطبق
ما كان عمر يطبق » (١) .

وهناك قصص من هذا النوع يمثل التغيير الذي طرأ في أيام عثمان على حياة بعض أمر قريش
والتطور الكبير الذي طرأ عليهم بالقياس إلى أيام عمر : تطور ظهر في الثروة الكبيرة التي
أنهالت عليهم ، وفيما يقب الثروات الضخمة في العادة من ولوج حياة البطر والرفاهية والترف
في الحياة ، ومن ميل إلى زيادة الربح وتضخيم الثروة دون نظر إلى مستوى الآخرين . وهذا مما
ولد الضغط لا في نفوس الوالي والأرقاء وخدم ، بل في نفوس كثير من قريش والانصار ،
وأما أن الحياة الجديدة قد أنشأت ظروفًا تتعارض مع دعوة النبوة وأحكام الإسلام ، وأنها
جعلت ممن حاربوا الإسلام في أيام النبي ، ولم يسلموا إلا في أيام نصره ، أو من نسلهم طبقة سادة
متنفذة مكنزة المال ، تأخذ من بيت مال المسلمين ، ولا تدفع إليه إلا النزر اليسير . أما من
حارب وجاهد في سبيل الإسلام ، فقد حرم ذلك ، أو قتر عليه ، أو حيل بينه وبين الأرض ،
مع أنه قدّم مهاد بالإسلام . ومن هنا نشأ التذمر ، وارتفعت الأصوات بظهور مخالفت
وتصرفات شخصية وكيفية لم تعرف في أيام الرسول ولا في أيام الشيخين (٢) .

وإذا كانت حركة التذمر هذه قد ظهرت في المدينة ، وإذا كان عمر قد تكهن بها وشخصها
وعرف نتائجها وهو خليفة ، فإن شعور أهل المدينة بها لم يكن بدرجة شعور أهل البلاد المفتوحة
ولا سبأ أهل العراق . فقد منى العراق بالإقطاع في العهد الساساني السابق للإسلام ، فكان في
ذلك العهد سادة وأتباع : سادة هم الأسرة المالكة الساسانية والوزراء والرازية والدهاقين
ورجال الدين ، ولكل منهم أرضين واسعة تستغل لحسابهم وخدم ، وأتباع كانوا يشتغلون إما
لغيرهم ، وإما لحسابهم ، ولكن بكسب ضئيل لا يكفي إلا لسد الرمي في الغالب وهذا ما جعل

(١) الطبري (١٣٦/٥) .

(٢) راجع أجوبة الخليفة عثمان على اعتراضات منتقديه .

السكان وهم أنماط من الناس وخليط من أجناس وأديان ، يتقدمون على الحكومة ويشعرون أنها هيئة غريبة عنهم ، لا تعرفهم إلا عند حاجتها الى المال . فلما جاء المسلمون ، فرحوا بهم ، ورأوا في قدومهم الخلاص والفرج بعد الشدة ، وسهواوا للفاتحين سبل الفتح ، ودخلوا في الاسلام أفواجاً أفواجا ، ولسكنهم سرعان ما شعروا أن مشكلاتهم الأساسية ، المتعلقة بمعايشهم وبحياتهم لم تحل ، فأنتقلت الأرض الى ملاك جدد ، لم يكونوا من أصحاب الإقطاع في السابق ، ولا علم لهم بإدارة الأملاك ، استأثروا بخيرات الأرض دونهم ، مع مساواة الإسلام بين الجميع في الحقوق ، ورأوا أن الدهاقين القدماء المستغلين قد استمانوا بالسيادة الجدد وهم من رجال قريش ، فتعربوا اليهم ، مستغلين نفوذهم وسلطانهم وصاروا كالمسلمين يتحكرون فيهم . فالوضع الجديد إذن هو استمرار الوضع القديم مع فارق واحد ، هو ذهاب سيادة قديما وبحي سيادة جدد أخذوا مواضع الماضين .

وقد كان الناقور على الخليفة الراشدا ، لا يجمع بينهم جامعة ، لتمدد دوافع النعمة . وكان « السبثيون » في جملة هؤلاء . ولما كان موضوعنا خاصاً بهم ، وليست له صلة مباشرة بموضوع النعمة على عثمان ، فسنعصر الكلام عليهم وعلى بقية دعوتهم في أيام عثمان وعلي . وقد وردت لفظة : « سبثي » في بعض الروايات مرادفة لمنتقم الخصم ، مدفوعاً على خصومته هذه بعامل النعمة ، كالذي ورد عن « عمير بن ضابي البرجمي » وكان أبوه قد مات في الحبس ، عززه عثمان وحبسه ليعمل ارتكبه ، فصار ابنه من أشد الناس على الخليفة . ولما تحدث « السري » عن سبب الخصومة ، أمرض لحسال أبيه ، ثم قال : « فلذلك صار عمير بن ضابي سبثياً » (١) .

والغريب أن هذا الدور الذي ينسبه « السري » الى « ابن السوداء » والى السبثيين لا نجد له ذكراً في الجزء الخاص من تاريخ « البلاذري » المطبوع ، وفي هذا الجزء خبر خلافة عثمان

(١) الطبري (١٣٧/٥) ، البلاذري : أنساب (٨٤/٥) .

عبدالله بن سبأ

وتفاصيل مقتله ومن اشترك فيه . ثم من القريب أيضاً أننا لا نجد في مرآة عثمان الواردة في تاريخ الطبري أو في « أنساب الأشراف » أو في أي مكان آخر إشارة إلى دور هذا اليهودي المسلم ، ودور السبئيين في التعريض على الخليفة وفي إثارة الفتن عليه . والإشارة إلى دور هؤلاء مهمة جداً ، ولا سيما أن مثيرها كما يذكر « السري » رجل من أصل يهودي . فالإشارة إليهم غير مطلق وأحسن مثلية توجه إلى خصوم عثمان والتجاسرين عليه . لقد طعنوا في علي فاتهموه بأن له يدأ في قتل عثمان ^(١) ، وأشاروا إلى قتلته ، فلم لم يشيروا إلى ابن السوداء وإلى السبئيين إن كان للسبئيين يد في قتل عثمان ؟

والسبئية كما رأيناها في روايات « السري » حركة اجتماعية ذات اتجاه اشتراكي متطرف تدعو إلى الثورة على الأغنياء وعلى الأثرياء الجسد وعلى السادة الجدد الذين امتلكوا أرضين واسعة في المناطق الخصبة من العراق ، وقد تحاملت على عثمان لأنه تساهل على زعمها مع أقربائه ومع بني أمية ، فتركهم يمشون في بيت المال ، أخذوا منه ما لا يستحقونه ، فأثروا ، وامتلكوا ، واكتثروا ، وتحكموا في شؤون الفقراء . فإذا كان رأيها بعد مقتل عثمان ؟ وماذا كان موقفها من الخليفة علي ؟ هل كانت منه أم عليه ؟

و « السري » — بعد — مورّدنا وسندنا الأول والأخير في هذا البحث أيضاً . وهو يتحدث عنهم في أثناء كلامه على خلافة علي ، غير بنسب إياهم أناساً ظنوا أن الأمر سيكون في

(١) قال حسان بن ثابت :

ما كان حسان علي وابن عثمان

يا ليت شمري ، وليت العابر نجرني :

وقال الوليد بن عتبة بن أبي معيط :

ولا نهبوه ، لا تحمل مناهبه

بني هانم ، ردوا سلاح ابن أختكم

كما غدرت يوماً بكسرى مرزبه

ثم قتلوه كي يكونوا سكانه

وعند علي سيفه ونجائبه

وكيف يرجون البراءة عندنا

البلاذري (١٠٤/٥) .

جواد علي

أبيهم ، وأن الحكم سيكون لهم في أيام علي ، وأنه سيفقد رغبتهم ، وإذا به يخالفهم في الرأي ، ويجادلهم في مذهبهم ولا يقرهم على ما ذهبوا إليه . وقد أزعجهم رأي علي هذا وغاضبهم ، وانسكنهم لم يجرؤوا على الثورة عليه علناً ، وإنما سكتوا وسبروا وعمالوا خنده سرآ ، وذلك بث دعوتهم بين جماعته وأنصاره وإشاعة الفرقة بين حزبه ، وقد أضر عملهم هذا بعلي ، كما ألحق الضرر بهم ، وساعدوا من حيث لا يدرون بتقوية جبهة معاوية ، وبإضعاف جبهة علي وإضعاف علي معناه إضافة هم من حيث لا يدرون . معاوية خصم كما هو معروف للجانبين .

بويص علي بالخلافة ، وكانت الحالة فرضي ، والآراء متضاربة ، ودعاة الفتن نشيطون في كل مكان . وجاء إليه طلحة والزبير في عدة من الصحابة يقولون : « يا علي ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل ، وأحلوا بأنفسهم . فقال لهم : يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكنني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قد ثارت منهم عيادتكم ، ونابت اليهم أعماركم وهم حلالكم يسومونكم ما شاؤوا ، فهل ترون موضعاً تقدره على شيء مما تريدون ؟ قالوا : لا . قال : فبلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله . » (١)

ثم إنه تأثر من مقالة بعض الناس فيه ، فقام في قريش « فحمد الله ، وأثنى عليه ، وذكر فضاهم ، وحاجته إليهم ، ونظره لهم ، وقبضاهم دينهم ؛ وأنه ليس له من سساطانهم إلا ذلك والأجر من الله عز وجل عليه . ونادى : برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه . فتذامرت السبئية والأعراب ، وقالوا : لنا غداً مثلها ، ولا نستطيع نحتج فيهم بشيء . » (٢)

وذكر « السري » أيضاً أن علياً خرج في اليوم الثالث على الناس ، « فقال : يا أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب . وقال : يا معشر الأعراب الحقوا بعيابكم ، فأبت السبئية ، وأطاههم الأعراب ، ودخل علي بيته . » (٣)

(١) الطبري (١٤٨/٥) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الطبري (١٩٠/٥) .

عبد الله بن سبأ

وهكذا نرى السبئية والارابي والأعراب جهة متحدة ضد أصحاب الأرض والثرين من قريش . لا يرون الرجوع الى عملهم إلا بشروط ، وإلا بأسلح حالم وانصافهم وإعطائهم حقهم في العمل والانتاج . أما ساداتهم من قريش ، فهم يأبون عليهم ذلك ، ويرون في قولهم هذا تحدياً وفتنة ، وتجاوزاً عليهم ، وخروجاً على القانون والنظام . وممت المدينة ، المقر الذي قتل فيه الخليفة وبويح فيه الخليفة الجديد ، حالة من الفزع والاضطراب .

وحار علي في الأمر ، وخرج معظم الصحابة عنها ، فكان الكثير منهم قد تركها يوم وصول « المصريين » اليها ، وعلمهم بانفلات الأمر من يدي عثمان . وصار الناس القادمين من المدينة يجيئون حين يسألون عن الوضع : « قتل عثمان ، واجتمع الناس على علي ، والأمر أمر النوفاء » (١) .

وقد عزا من خرج من المدينة مهاجراً أو فاراً من هذا الوضع سوء الحال الى « النوفاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل » ، والى مظاهرة الأعراب والبيد لهم (٢) . وكل هؤلاء هم من الطبقات المتدمرة الفقيرة المدمرة ، التي يرجع ندمها الى عهد بعيد قبل الاسلام ، وهم الأكثرية الغالبة ؛ لهذا غلبوا على المدينة ، وتحكموا فيها في هذا العهد .

وقد أولدت هذه الحالة مشكلة خطيرة لعلي ، أدركتها السبئية منذ أول يوم استخلف فيه ، فقالت له :

| | |
|----------------------------|-------------------------------|
| خذها إليك وأحذرنُ أبا حسنُ | إنا نمرُ الأمرُ إمرار الراسنُ |
| سولة أقوام كاستداد السفن | بشرفيات كاستدراك اللين |
| ونعلمن السلك بلين كالشطن | حتى يُمرن علي غير عن (٣) |

(١) الطبري (١٦٦/٥) .

(٢) « النوفاء من الأمصار ونزاع القبائل وظاهرهم الأعراب والبيد » ، « إن النوفاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المخدثين ... » ، الطبري (١٧٣/٥) وما بعدها .

(٣) الطبري (١٥٨/٥) .

وعرفها عليّ أيضاً وشخصها في اليوم الأول من تواليه الخليفة ، وعرفها كل من كان واقفاً
على واقع الحال وعلى الأسباب التي أدت الى حدوث تلك المشكلات .
فلم يكن السبثيون على ما يبدو واضحا جليا من رواية « السري » عنهم ، من خاصة جماعة
عليّ ، ولا من أتباعه المخلمين له ، بل كانوا أصحاب رأي ومقالة وفكرة اجتماعية ، انحازوا الى عليّ
ومالوا اليه ، لمساكنته ومزاته ، ولتشفه وشدة زهده ، ثم هو على خلاف من ثاروا عليهم في
المال وفي اكتناز الأرض والثروات . ولو وجدوا رجلا آخر له المساكنة التي كانت لعليّ والمنزلة
التي تمتع بها عليّ بين المسلمين ، وكان له رأي كرايهم وهوى كهواهم ، مالوا اليه حتماً ، ولساعدوه
وأيدوه ، ولسكنهم لم يجدهم ، ولم يجدوا أمامهم إلا عليّ بن أبي طالب ، فاندسوا بين جماعته ،
وساعدوه على حذر ، وعلى أمل التملب عليه وتوجيهه الوجهة التي يريدونها ، وإلا اشتغلوا
ضده وانقلبوا عليه ، إن كان ذلك في الإمكان فعليه ، وانتخبوا غيره ، ممن يطاوعهم في تلك الآراء .
ولا خطب عليّ في مسيره الى البصرة للاقاة طلحة والزبير ، طالبا ألا يرتحلن معه « أحد ،
أمان عليّ عثمان ، رضي الله عنه ، بشي في شي من أمور الناس » ، « اجتمع نفر ، منهم : علياء
ابن الهيثم ، وعدي بن حاتم ، وسالم بن ثعلبة القيسية ، ومريح بن أوفى بن ضبيعة ، والأشتر ،
في عدة من سار الى عثمان ، ورضي بسير من سار ، وجاء معهم المصريون : ابن السوداء ، وخالف
ابن ملجم ، وتشاوروا ، فقالتوا : ما الرأي ؟ وهذا ، والله ، عليّ ، وهو أبصر الناس بكتاب
الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم الى العمل بذلك ، وهو يقول ما يقول ، ولم ينفر اليه إلا هم
والقليل من غيرهم ، فكيف به إذا شام القوم وشاموه ، وإذا رأوا قتلنا في كثيرهم ؟ أنتم ،
والله ، ترادون وما أنتم بأنجي من شي » . وكانت مداولة وشاورة ، كان لابن السوداء فيها
رأي مسموع وصوت عال . ثم اتفقوا على ألا يبالوا بكلام عليّ ، وعلى ان يسيروا الى البصرة ،
ويشتركوا في القتال ، ولو بنير إذن ، وقد نفذوا ما اتفقوا عليه ، فكانوا في جملة من ساءم في
مركة الجمل ، وأشمل ناراها وابتدأ بها ، مع رغبة عليّ في عدم البدء بالهجوم ، وتجنب القتال

عبد الله بن سبأ

بالمفاوضات والسلم^(١) . وقد قام السبئيون في هذه المعركة برمي الشباب^(٢) . وكان ابن السوداء قد أوصاهم وأصدر وصاياه اليهم بقوله : « يا قوم إن عزمكم في خلطة الناس فصانموهم ، وإذا التقى الناس غدأ فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للأنظر ، فإذا من أنتم معه لا يجدوا بدأ من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ، ومن رأى رأيهم عما نكرهون ، فأبصروا الرأي ، وتفرقوا عليه ، والناس لا يبصرون »^(٣) .

وساهمت السبئية في القتال ، لم تبال برأي علي ، واشتركت فيه إلى جانب علي ، وكان واجبهما وعملها اشمال نيران الحرب حرب الجمل كما وجدت فتوراً في وقودها . تذهب إلى الأمام حين تشمر بفتور القوم في القتال فتمساجم ، حتى إذا مارأت النيران وقد ارتفعت مرت ، وقد حاول علي زبهم مراراً ومنهم من القتال ، ولسكنهم كانوا يأبون إلا إقداماً ، مضوا في ذلك إلى النهاية : نهاية حرب الجمل^(٤) .

وانتهت حرب الجمل بانتصار علي ، ونظر علي في بيت مال البصرة ، فإذا به « حث بثة الف وزيادة » ، فأمر بتسمة علي من شهد معه الحرب . وقال : « لكم إن أظفركم الله عز وجل بالشام مثلها إلى أعطيانكم . وخص في ذلك السبئية ، وطمعوا على علي من وراء وراء »^(٥) . طامعوا عليه لتوزيعه هذه الأموال على ما يظهر ، ولطمعهم رأي خص في « بيت المال » ، وفي التصرف في أموال المسلمين . وهكذا نجد السبئية مع علي في الظاهر ، ولسكنها لم تسكن معه ، إلا اعتماداً منها بأنها ستستقله وتستفيد منه في تحقيق وجهة نظرها في مذهبها المعروف .

ولم تر السبئية البقاء في البصرة طويلاً بعد انتهاء حرب الجمل ، فأهملت علياً من المقام ، كما

(١) الطبري (١٩٤/٥) وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٠٣) .

(٣) الطبري (١٩٥/٥) .

(٤) الطبري (٢٠٧/٥) .

(٥) الطبري (٢٢٣/٥) « بيعة أهل البصرة ميثاً وتسمة ما في بيت المال عليهم » .

يقول « الطبري » ثم ارتحلت بغير إذنه ، فأدرك علي غرضهم ، ومخالفتهم له ، فارتحل في آثارهم ، ليقطع عليهم أمراً إن كانوا أرادوه « (١) . ولم تذكر الرواية الجملة التي قصدها والسكان الذي أرادته ، والظاهر أنها قصدت الكوفة ، لتعمل عملها فيها بين مختلف الآراء والاتجاهات فيه ، وهو موضع كان سكانه من أشد الناس نقمة على المنتهزين أصحاب الأملاك من قريش . وقد ساهوا هم أنفسهم كما رأينا مع المصريين والبصريين في الثورة على عثمان .

فالسببة التي خاضت عثمان وحاربتسه ، وأغرقت العبيد والموالي والأعراب بساداتهم ، وبأصحاب الثراء والأملاك ، ونادت علينا بالخروج عليهم والاستيلاء عنوة على كل ما يملكون ، لم ترض عن علي أيضاً ، ولم تؤيده إلا اعتقاداً منها أنه سيستجيب لها ، أو أنها ستقلب عليه . فلما وجدت أنه لا يقرها على ما ذهبت إليه ، ولا يوافقها على رأيها في انتزاع الأرضين والأملاك من الملاك والمثريين عنوة ، وأنه على العكس طالب الأعراب والعبيد والموالي بالرجوع إلى مواضعها وإلى ساداتها ، نفرت منه ، وأخذت تعمل من وراء وراء للتخلص منه ، ثم تركته وسابته . والظاهر أنها اعتزلته ، فلم تشارك في حروبه مع معاوية وجماعته أهل الشام ؛ ولأن في قتال الخوارج خصوم معاوية وعلي .

أما عملها وبجال نشاطها في بث دعوتها هذه ، منذ هذا اليوم ، فقد سكنت « المري » عنه ، فلم يحدثنا بشيء عن ذلك ، ولم يحدثنا بنشاطها في هذا الميدان في الكوفة أو البصرة . كذلك لم يذكر أهل الأخبار اسمها بين أسماء الداعين إلى الثورات الاشتراكية المتعارفة المنيفة في المهديين الأموي والعباسي . ولم يكن من السهل عليها بالطبع دفع رأسها بعد تغلب معاوية على العراق ، والجماعة بدعوتها أو التجاسر على نشرها بين الناس ، وهي تهمة بتهمتين : تهمة المشاركة في الفتنة التي قامت على الخليفة عثمان التي أدت إلى مقتله ، وتهمة الدعوة إلى تأليب العبيد والموالي والأعراب والفلاحين على ساداتهم وعلى حكامهم ، وهي دعوى أخطر في نظر الخليفة الجديد من تهمة الأولى . وفي كلتا الحالتين لاهوادة فيها ولا مجاملة ولا رفق في المعاملة . ولذلك لم تطمع

(١) المصدر نفسه .

عبد الله بن سبأ

السبئية في عفو أو رافسة من معاوية أو من الولاة الذين عيّنهم على المعرّين في العراق أو في مصر .

ما ذكرته هو آخر ما ذكره الطبري عن نشاط السبئية وعملها في هذا الباب . أما رأي « ابن سبأ » ، في الرجمة وفي الوصية وفي الغلو في عليّ بن أبي طالب ، فقد ذكره الطبري في أخبار سنة ٣٥ هـ ، أي في أيام عثمان وفي أثناء إقامة « ابن سبأ » بمصر .
ويتلخص هذا الرأي فيما يأتي :

- ١ — الرجمة : قال ابن سبأ للمصريين : « لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويسكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عزّ وجلّ : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . فقبلوا ذلك عنه ، ووضع لهم الرجمة ، فتكلموا فيها » .
- ٢ — الوصية : وقال ابن سبأ للمصريين أيضاً : « إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي . وكان عليّ وصيّ محمد . ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعليّ خاتم الأوصياء » .
- ٣ — الطعن في الخلفاء : « ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ووثب على عليّ وصي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وتناول أمر الأمة ، ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأهضوا في هذا الأمر ، فحرقوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وجعلوا يكتبون إلى الأمصار يكتب بضمونها في عيوب ولانهم ، ويكتبونهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون . فيقرؤهم أوائلك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تنازلوا بذلك المدينة ، وأوسسوا الأرض إزاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون » .

أما الرجمة ، رجمة النبي محمد إلى العالم بعد وفاته ، فلا نجد لها أثراً في فرق الشيعة ، أو الفرق

الأخرى . نعم ، لقد تشكك عمر في وفاة النبي ، حين فوجئ بـ"بخبير وفاته ولم يصدقه ، واسكنه عاد فصدقه . والرجمة التي نادى بها ابن سبأ تختلف عن الرجمة التي ذهب اليها عمر . والرجمة الى الحياة بعد الموت ، من الآراء المعروفة عند كثير من الشعوب ، ومنهم أهل مصر القدماء . أما البت في صحة ما نسبته السري الى ابن سبأ من القول بالرجمة ، فأمر غير ممكن في الزمن الحاضر ، ولا يمكن البت فيها ، ما لم تتوفر لدينا موارد أخرى جديدة تزيد في علمنا بأراء هذا الإنسان .

والشي يظهر من روايات أهل الأخبار عن الرجمة عند ابن سبأ أنه كان يقول بـ"رجمة علي ابن أبي طالب . وقد ذكر أنه لما بلغه خبر مقتله قال للذي نراه له : « كذبت ! لو جئتنا بدمافه في سبعين حرة ، وأقتت علي قتله سبعين عدلاً ، لملنا أنه لم يموت ولم يقتل ، ولا يموت حتى يملك الأرض » (١) .

وأما الوصية ، فإنها من عقائد الشيعة الأساسية ، وطبي في نظر الشيعة هو وصي رسول الله ، وهو خاتم الأنبياء ، كما أن محمداً هو خاتم الرسل والأنبياء ، وهو الإمام أيضاً ، ومنه انتقلت الإمامة الى ولديه الحسن والحسين ثم الخلفاء . وفي الخلفاء تختلف فرق الشيعة في إمامتهم .

ويذكر الترمذي أن عبد الله بن سبأ والى علياً ، وأنه قال إن علياً من الرسول بمنزلة يوشع ابن نون بعد موسى ، وأنه أول من شمر القول بفرض إمامة علي ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه . ثم قال « فمن هنا قال المخالفون إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية » (٢) . ويذكر الرواة أن ابن سبأ غالى بـ"مسد ذلك في علي بن أبي طالب ، وأن غلوّه هذا ورأيه في الوصية دفعاه الى العطن في الخلفاء الثلاثة والصحابة الذين لم يوافقوا علياً ، وتبرأ منهم ، وأنه

(١) فرق الشيعة (ص ٢٢) .

(٢) فرق الشيعة (ص ٢٢) .

عبد الله بن سبأ

تطاول عليهم وأخذ يسبهم ، ولما سُئِلَ عن ذلك ، قال : « إن طيباً عليه السلام ، أمره بذلك . فأخذه علي ، فسأله عن قوله هذا ، فأقرّ به ، فأمر به . فصاح الناس إليه : يا أمير المؤمنين ، أنقتل رجلاً يدعو إلى حبسكم أهل البيت ، وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك ؟ فصيروه إلى الدائن . ^(١) »

ونجد في بعض الكتب إشارة إلى فرقة دعواها بـ « السبائية » ، عرفت بسب الخلفاء المذكورين وبعض الصحابة ممن لم يكن من مؤيدي علي . وقد فسد بهما « السبئية » وصرح بذلك . البغدادي ^(٢) وأبن حزم ^(٣) والإسفرائيني وآخرون ^(٤) .

وقد قال البغدادي منذ كلامه على « السبائية » : « السبائية أتباع عبد الله بن سبأ » ^(٥) ، وذكر ابن عبد ربه رواية لاشمسي عن الرافضة ورد فيها : « وقد حرقتم علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، بالنار ، ونفاهم إلى الدائن ، منهم : عبد الله بن سبأ ، نفاه إلى ساجاط ، وعبد الله ابن السبأ ، نفاه إلى الحاذر ، وابن كروم » ^(٦) . و « عبد الله بن السبأ » هو عبد الله ابن سبأ ، ولا شك ، وقد أخطأ راوي الخبر ، فجعل من الرجل الواحد رجلين : اسم أحدهما عبد الله بن سبأ ، واسم الآخر عبد الله بن السبأ .

والسبئية هم « سبائية » إذن ، أي من الجماعة التي عرفت بالتطاول على الخلفاء ، وعلى بعض الصحابة ، واشتهرت بسبهم . والسب هو لون من ألوان التعبير عن العواطف ، حيث تغلب المعاطفة على العقل : وهو نوع من الإفراج عن النفس . وقد سبب الأيوبيون علي بن أبي

(١) التوبخني : فرق الشيعة (ص ٢٢) .

(٢) الرسالة : العدد ٧٧٦ ، تاريخ ١٧ مايس ١٩٤٨ (ص ٥٥١) .

(٣) الفصلى : بحث فرق الشيعة .

(٤) وفيات الأعيان (١ / ٤١٥) ، نوات الموليات (١ / ٢٩٨) ، طبعة مصر ، السكيت : طبقات

الشافعية (١ / ٢٢٨ و ٢٢٨ / ٣) .

(٥) الفرق بين الفرق (٢٢٣) .

(٦) العقد (١ / ٢٦٧) .

طالب ، في مقابل سب هؤلاء اللامؤمنين ، كما طعن الخوارج في عثمان وعلي وفي المؤمنين .
 وذكر بعض أهل الأخبار والفرق أن السببية خالت في علي ، وأنه « كان بدعي النبوة ، وبزعم أن
 أمير المؤمنين ، عليه السلام : هو الله ، فبلغ ذلك أمير المؤمنين ، عليه السلام ، فدعا وسأله ، فأفر
 بذلك ، وقال : نعم أنت هو ، وقد كان أتى في روعي أنك أنت الله ، وأنت نبي ! فقال له أمير
 المؤمنين عليه السلام : وبلك ! فقد سخر منك الشيطان ، فارجع من ههنا فكانت أمك ،
 وتب . فأبى ، فحبسه ، واستنابته ثلاثة أيام ، فلم يتب ، فأحرقه بالنار ، وقال : إن الشيطان
 استهواه ، فكان يأتيه ويلقى في روعه ذلك . »

وروي أن الإمام جعفر الصادق ذكر عبد الله بن سبأ فقال : « لعن الله عبد الله بن سبأ !
 إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان والله أمير المؤمنين ، عليه السلام ،
 عبداً لله طائفاً . الويل لمن كذب علينا ، وأن قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا نبراً إلى الله
 منهم ، نبراً إلى الله منهم ! »

وفي هذا النوا يقول السيد الحميري :

فقوم غلبوا في علي ، لا أبائهم
 وأجشموا أنفسهم في حبه تبعاً
 قالوا : هو ابن الإله جل جلاله
 من أن يكون له ابن أو يكون أباً (١)

وروي أيضاً أن علياً لما رأى اصرارهم على النلو فيه ، وقولهم له : أنت أنت ، أي أنت
 الإله ، أمر بإحراقهم في النار : أمر بحفر أخدود لهم وضع فيه ناراً ، وأحرقهم فيها ، وأنهم
 كانوا يقولون ، وهم يشاهدون النار : الآن ثبت لنا أنك أنت ، لأنه لا يحرق في النار إلا الله .
 وأن علياً قال في ذلك شعراً منه :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً
 أوجبت ناري ودعوت فقيراً

وزعم أن أتباع عبد الله بن سبأ ، وتسميم بعض الكتب السببية وتسميم كتب أخرى

(١) المقصد الفريد (٢٣٦/٢) ، طبعة محمد سعيد المرزبان ، .

عبد الله بن سبأ

الصباية ، قالوا إن علياً حي لم يموت « وهو الذي يجيء في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق
سوطه ، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيجمل الأرض عدلاً كما كانت جوراً . » (١)
ويظهر من موازنة ما جاء في تاريخ الطبري وفي كتب الملل والنحل بما جاء في كتاب فرق
الشيعة للثوبختي والرجال للسكشي ، أن كتب الشيعة قد غالت في ذم ابن سبأ وفي التنصل عنه
والتبرؤ من آرائه ، وزادت في نسبة الفلوات إليه . وهذه ملاحظة نستحق الدرس .
عرفنا السبئية في روايات السري ، وهي في الأصل حركة اشتراكية تدمرية ، دفعها عوامل
متعددة ، وانتهت بقتلها الخليفة عثمان ، وبتولية علي بن أبي طالب ، وعرفنا أنها لم تكن تؤيد
عليّاً إلا طمعاً في تغيير الأوضاع وقلب الأحوال . فلما وجدت أنه ليس علي ما تريد ، تدمرت
منه ، وأخذت تعمل للتخلص منه ، فكيف انقلبت إلى فرقة نغالي في حبه ، وتبالغ في تعديسه ،
حتى جعلته إلهاً ، وشبه إله . وهل يعقل وقوع ذلك من هذه الفرقة ؟
هذه أسئلة مهمة ، تحتاج الإجابة عنها إلى غزلة جميع ما ورد في هذه الروايات ، وتفسد
سلسلة سند السري ، وسيكون ذلك عملنا في الجزء التالي من المجلة إن شاء الله .

جواد علي

(١) الشهرستاني (٣٦٥/١ وما بعدها) « تحقيق محمد بن فتح الله بدران » .